الاسم

حسنًا، لقد بدأ الأمر كله عندما جلس في نهاية ذلك اليوم أمام مكتبه وقد أعياه الإرهاق، لم يكن إرهاقًا بدنيًا بل كان إرهاقاً نفسيًا أو عقليًا بسبب ذلك الخبر الذي قد سمعه في الصباح الباكر، فقد غيّر الخبر مجرى حياته، ولم يصبح أي شيء مثلما كان عليه قبله، فقد خسر كل شيء .. أطرق برأسه قليلاً إلى أن لفت انتباهه وقطع تفكيره ذلك الملف الذي يوجد على المكتب، لقد كان هناك منذ مدة طويلة من الزمن ولكنه لم يعره اهتمامًا.. فقد ظل يتهرب من فتحه ورؤية محتواه طوال تلك الفترة الطويلة.

فبداخل الملف قصة ما، قصة غامضة هو يعلمها جيدًا، لكنه لم يهتم لها أبدًا .. تلك القصة التي بإمكانها أن تجعله أفضل صحفي في البلدة على الإطلاق.

يعلم جيدًا أنه ما من أشياء مجانية في الحياة فكل الأمور تحتاج إلى تضحيات وتنازلات صغيرة أو كبيرة، لكن في المطلق إن الحياة لا تهديك الأشياء مجاناً، وبالرغم من أنه لم يؤمن أبدًا طوال حياته بالخرافات التي يسمعها وأحيانا ينتهي به الأمر إلى الاستهزاء منها إلا أنه لم يستطع أن يقبلها هذه المرة ويقدم تضحية التصديق بها فلا يوجد ما هو في حياته الآن شيء ثمين يستحق أن يعيش له فقد خسر كل شيء اليوم وأصبحت حياته رتيبة مملة.

ظل يفكر لوقت ما قبل أن يقترب من الملف ويفتحه وتيقن أن تلك القصة التي ظل يهرب منها طويلا هي مفتاحه للتخلص من كل شيء سيء، وتمنى لأول مرة في حياته أن تكون الخرافات حقيقة ملموسة بل أكثر من ذلك، لقد تمنى أن تكون تلك الأشياء والمخلوقات تترصده من بداية حياته لتجعله يندم على كل كلمة قد استهزأ بها عليهم وكل جملة سخرية قالها في حقهم يومًا ما.

ورغم تصارع الأفكار في عقله إلا أن يده هرعت للإمساك بالملف وتسارعت عيناه في التقاط الكلمات.

«مستشفى كريستوفر للأمراض العقلية، مشفى قد هجر منذ فترة من الزمن تساوي الخمسين عامًا تقريبًا وقد أشيعت بعض الإشاعات عنه بسبب وجود قضايا إنسانية رفعت عليه أثناء العمل به وعليه، مشفى غامض جدا لم يرَ أحد أبدًا ولم يعرف الأطباء والعاملين والممرضات الذين كانوا يعملون به ودائمًا ما كان مرضاه يأتون من أماكن نائية، باختصار لم يعرف أحد ما حقيقة ما يحدث أو يجري هناك داخل ذاك المشفى أو حوله، ولكن تكاثرت الأقاويل بين الناس عنه كما اعتادوا أن يفعلوا دائمًا ويتحدثوا عن الأماكن الغريبة»

لقد كان هذا فقط ما قد كتب عن هذا المشفى فتعجب لذلك كثيرًا وأطرق برأسه قائلا في نفسه بصوت مسموع قليلا : « حسنًا، يبدو أنها مزحة قام بها أحد الأطفال الأغبياء الذين لا يجدون شيئًا نافعًا مفيدًا يتحدثوا عنه»

قال جملته تلك متمنيًا أن تستفزهم كلماتها، متمنيًا حقًا أن لو كانوا موجودين بالفعل وقد سمعوه ولكن بالرغم من ذلك فلم يستطع أن يتحكم في كبريائه وتراجع سريعًا عن قراره فلن يستطيع أن يؤمن بوجود تلك الكائنات بعد كل هذا الزمن الذي أنكر وجودهم فيه.

فأعاد الملف إلى مكتبه ولم يستطع الانتظار أكثر، ربما كان خائفا من أن يغير رأيه وقد أراد أن ينهي كل شيء سريعًا.

فالتقط الملف مرة أخرى وأسرع متجهًا إلى مكتب المدير مقتحمًا غرفته ثم ألقى بالملف على المكتب قائلاً «سأقوم بالتحقيق في هذه القصة بنفسي بدءًا من الغد إن شاء الله تعالى»

فأجاب فرانك بصوت عميق يكاد ألا يسمع لولا أنه قطع هدوء النهار ثم همس « أخيرًا بدأت تفهمني، ولكن لماذا اخترت الغد خصيصًا ؟» .. «لأنني أملك الكثير من الوقت غدا.. نعم وأحتاج للمعدات الآن أيضا هيا» .. « انتظر حسنًا حسنًا لا تستعجلني هكذا سأعطيك المعدات» .. « أحتاج لقصة جيدة في أسرع وقت «

انتهى الحوار فبدون أي كلمات أخرى خرج من مكتب المدير مستقلا سيارته، لم تكن سيارة فارهة، ولكنها كانت تكفيه لقضاء ما يريد ولم يرغب في تغييرها على أية حال، بل وإنه يشعر أحيانًا أنها تشبهه.

سار في الطرقات متجهًا حيث وجهته، وقد كانت الطرق هادئة فلم يكن الكثيرون يعملون في هذا اليوم، قاد بسرعة أسرع من المعتاد السريع دائمًا فهو شخص يحب الإسراع دائما نحو أي شيء فإنه يرى أن في ذلك أفضل له، لا يعرف هل ما أخذه من قرار في مكتب المدير جيدًا أو لا، لكن على الأقل إن كان قراره جيدًا فهو لن يندم ولن ينتظر أكثر من ذلك، وإن كان سيئًا فلن يخسر إن جازف وحاول هذه المرة.

وصل إلى منزله وأخرج المفتاح من جيبه ثم وضعه في فقل الباب، ولكن كالعادة ما يتشبك القفل المهترئ في المفتاح ويعلقان معًا، وأخيرًا قد فتحه بعد عدة محاولات وأصدر الباب صريره المزعج المعتاد عند فتحه دائمًا.

بـدّل مـلا بسـه، ثـم ذهـب ليسـترخي قليـلا عـلى تلـك الأريكـة الصغـيرة في صالـة منزلـه أمـام التلفـاز قديـم الطـراز الـذي كان يملكـه، لـم يكـن يعمـل جيـدًا، وكانـت صورتـه دائمًـا باللـون الرمـادي، رأى في ذلـك مبيتـه تلـك الليلـة أمـام التلفـاز وهـو يشـاهد تلـك القنـاة البائسـة الـتي مـا ينقطـع إرسـالها حـوالي عـشر مـرات في الدقيقـة عـلى الأقـل، لا شيء ممتـع، ولكنـه لـم يغيرهـا وكانـت عينـاه مرتكزتـين عليهـا ولا يريـا أي شيء، حسـنًا لقـد كان عقلـه في مـكان آخـر تتخبطـه الأفـكار مـن مختلـف الأماكـن فهـو يفكـر قائـلاً في « كيـف حـدث ذلـك.. ومـتى.. لكـن لمـاذا لـم يخـبرني أحـد مـا.. ومـاذا كان سـيحدث إذا لم أكتشـفه.. هـل مـن الممكـن إنقـاذ كل شيء.. أم أنـه لا، ومقـدر ذلـك منـذ البدايـة.. هـل كان ذلـك قبـل التحقيـق في هـذه القصـة أم كان بعدهـا.. وهـل لـو أنـه قـد قبـل التحقيـق بهـا بنفسـه منـذ البدايـة مـا كان قـد حـدث كل ذلـك..»

اسـتعاد عقلـه سريعًـا إلى الواقـع وتمـنى لـو أن تنتهـي تلـك الليلـة سريعًـا حـتى يبـدأ مهمتـه وينتهـي مـن ذاك الأمـر سريعًـا، لكـن الوقـت كان يمـر ببـطء شـديد وكأن الوقـت نفسـه لـم يـرد تلـك الليلـة أن يمـضي سريعًـا كمـا الليـالي الأخـرى، وكأن العالـم بأجمعـه قـد اتفـق عليـه هـذا اليـوم.

ضـوء سـاطع يتسـلل إلى عينيـه وكأن النهـار قـد أقبـل بـلا ميعـاد لقـد كان نـور الشـمس اليـوم أقـوى مـن أي يـوم مـر وسـيمر، وكأن الشـمس بذاتهـا جـاءت تحـذره مـن أن يكمـل ذاك الطريـق، ولكنـه هـمّ بالنهـوض سريعًـا عازمًـا عـلى إكمـال مـا قـد نـوى عليـه فاتجـه نحـو خزانـة ملابسـه مرتديًـا أول مـا قـد وجـده فيهـا ثـم اتجـه إلى عملـه ومنـه إلى مكتـب مديـره، ولكنـه لـم يجـده في مكتبـه فلـم يهتـم لذلـك فقـد وجـد مـا أراده مـن معـدات.

لـم يقـض الكثـير مـن الوقـت حـتى وجدهـا، ولـم يسـتغرب مـن شـكل المستشـفى فقـد كان هـذا مـا قـد توقعـه.

مهجورة.. ساكنة.. كأنها لم تعمر قط.. رغم من امتلائها بالأمتعة.

ولم يجد صعوبة في إيجاد مكان يركن فيه سيارته، وعندما خرج منه، كان لكل خطوة من خطواته صوت صاخب، كان الرعد يضرب سكون الليل وبدا المكان كله المستشفى، الأرض، السماء، الأشجار الميته كبيته رمادية.

بالرغم من قوة الشمس، إلا أن بعضًا من تلك السحب الرمادية كانت تحجب حرارتها لتعيد سقيع الشتاء كان الباب مفتوح، كأنه يدعوه للدخول فتقدم بخطوات ثابته وإن كانت بطيئة بعض الشيء ليتجاهل تحذير العالم له.

كان الباب ضخمًا يتناسب مع حجم المستشفى العملاق التي بالرغم من ضخامتها كانت تبدو خاوية، كان الباب ثقيل الوزن، بالرغم من أنه كان مفتوحًا إلا أن الدخول من خلاله كان صعبًا، كان يظن أن ذلك الصوت الذى يسمعه من بابه هو الأسوأ حتى سمع ذلك الضجيج الذي يصدره هذا الباب المخيف.

لم يقطع انزعاجه من هذا الصوت إلا ذلك المشهد الذي رآه، كأن هذه الأرض لم تطأها قدم قط، آثار هذا المشهد الرعب في جسده ولم يقو على التحرك خطوة أخرى، كانت الأرض نظيفة كأنها قطعه من الزجاج الرقيق، وإذا خطا خطوة واحدة سوف ينكسر وعندما استطاع أن يبعد عينيه عن الأرض لم يستطع أن يرى، فلم تكن عيناه قادرة على الوصول إلى نهاية لتلك الردهة بدت كأنها ضبابية، وكان الجو شديد البرودة و كأن الشتاء خرج من هنا، انتشر البرد في جسده واشتد نفسه فأصبح هو صوت الرياح، فلم يكن هناك صوتاً ما في المكان حتى أنه تمكن من سماع صوت دقات قلبه، ولكن بالرغم من ذلك كان هناك جزءاً من بيته، هناك اللون الرمادي وكأن بيته قد ابتلع العالم فقط ليحيطه.

أخـيرًا تمكـن مـن أن يأخـذ أول خطـوة شـعر بـأن الأرض تريـد أن تبتلـع قدميـه فـلا يخـرج مـن هنـا أبـدا، و لكنـه تمكـن مـن المـشي رغـم ارتعـاش قدميـه، وصـل إلى أول مـكان في تلـك الردهـة، « الاسـتقبال»، ولكنـه لـم يفهـم سـبب وجـوده حقًـا فلـم يكـن هنـاك الكثـيرون مـن المـرضى الذيـن يأتـون إلى هنـا، إذا أتـوا أصـلا.

اقـترب قليـلا مـن مكتـب الاسـتقبال وكان كل شيء في مكانـه، الحاسـوب والأوراق والأقـلام أو هكـذا بـدا لـه مـن بعيـد، أخـذ يقـترب شـيئا فشـيئا فشـعر بالخـوف قليـلا ظنـا مـن أنـه قـد يجـد أحـد مـا يجلـس عـلى ذلـك الكـرسي في الجهـة الأخـرى مـن المكتـب وبـدأت دقـات قبلـه تـزداد حـتى وصـل الى أمـام مكتـب الاسـتقبال، و لكـن عينيـه رأت شـيئا آخـر، دفـترًا وقلمًـا، حينهـا فقـط تذكـر أنـه لـم يجـد في مكتـب المديـر إلا آلـة للتصويـر.

فكيـف لـم يـترك المديـر دفـترًا وقلمًـا ؟! ولمـاذا وجدهـم هنـا هـل يحـاول أحدهـم مسـاعدته هـل يوجـد أحـد مـا هنـا أصـلا، أم أنـه المديـر بنفسـه قـد وضعهـم هنـا لأنـه نـسي أن يعطيهـم إيـاه فأخـذ يتلتفـت برأسـه ويتحقـق بعينيـه مـن المـكان، كأنـه يبحـث عـن أحدهـم ، ولكنـه لـم يجـد أحـدًا حولـه وجـد فقـط عـدة كـراسي وهنـاك طـاولات صغـيرة بينهـم ، وذلـك المدخـل لبقية الردهـة فلـم يكـن أمامـه إلا أن يكمـل طريقـه، بـدأ يتحـرك إلى هنـاك، ولكنـه مـا إن شـعر فجـأه بحركـة مـا هنـاك في السـقف، نظـر إليهـا مرتعبـا، إنهـا آلـة تصويـر لمراقبـة المـكان، وقـد شـعر بـأن هنـاك عينـان تنظـران إليـه مبـاشرة مـن خلالهـا ويبـدو أنهـا تحركـت إلى اتجاهـه فظـل ينظـر إليهـا قليـلا إلا أن خوفـه مـن أن يبعـد عينيـه عـن الطريـق أخافـه أكـثر.

بـدأ المـشي هنـاك، فقـط ليبعـد عـن ناظـر تلـك الآلـة حـتى وصـل إلى أول بـاب وكان مغلقـا وكانـت هنـاك نافـذة صغـيرة في البـاب، كان زجاجهـا منقوشًـا

لـم تكـن الرؤيـة واضحـة مـن خلالهـا، و لكنـه رأى أحـد مـن خـلال الزجـاج لـم يسـتطع تميـيز مـا كان، لكنـه بـدا وكأنـه مريضًـا، وكان يتحـرك حركـة سريعـة وصغـيرة، ولكنـه لـم يصـدر صوتـاً عـلى الإطـلاق، كان هادئًـا يحـاول سـماع أي صـوت.

«هل يمكنني مساعدتك ؟»

التفـت وراءه بسرعـة فوجـد أمامـه رجـلا يرتـدي معطفًـا أبيضًـا وفي يـده دفـتر، يبـدو أنـه الطبيـب فنظـر حولـه لـم يجـد أحـدا غـيره، فنظـر إليـه تلـك النظـرة الفارغـة ولـم يرانعكاسًـا لـه في عينيـه وبـدت عينـاه كثقبـين عميقـين كبيرتـين، وكانـت بشرتـه بيضـاء كالثلـج كمعطفـه الأبيـض.

لـم يجـد كلمـات يقولهـا حـتى وقعـت عينـاه عـلى بطاقـة التعريـف الـتي على معطفـه ثـم قـال «د. روبـرت»، و بـدا صوتـه مرتعشًـا فلـم يظهـر أي تعبـير عـلى وجهـه مـن الجهـة الأخـرى، ولـم يكـرر سـؤاله أيضًـا.

ساد الصمت مرة أخرى، ثم قال :

« أين الناس ؟»

«هل تعرفه ؟»

قال روبرت بعد القليل من الانتظار وهو يشير إلى الباب»

«.....نعم ....»

فكر في نفسه أنه إذا أجابه بنعم فمن الممكن أن يعرف المزيد

ولـم يكـن ليسـمح لـه الطبيـب بالدخـول أو طـرح الأسـئلة إذا لـم يكـن مـن العائلـة، ثـم قـال بصـوت خافـت :

« أنا قريبه»

« لقد كنا نبحث عنك منذ زمن يا فرانك !»

نظر إليه نظرة طاعنة، وكأنه رآه شبحًا، كيف عرف اسمه أهكذا سارت الأخبار بين الناس، أهكذا خسر كل شيء.!

وضع الطبيب يده على كتف فرانك فشعر أنها ثقيلة كالسندانة ثم قال:

« تفضل سيدي ....تفضل »

و فتح له الباب ..

كان ملقى هناك على السرير، يرتدى أحد تلك القمصان التي يرتديها المجانين، يحاول الخروج منها بهدوء كأن أحدًا سوف يسمعه، فلم يصدر أي صوت بالرغم من أن فمه لم يكن مغلقاً، وكانت عيناه مغلقتين، ولكنه بدا يشبه فرانك شيئًا ما، جسمه ليس رياضي ولكنه ليس سمينا، بشرته بيضاء ولكنها لديها سمرة الشمس، كان لديه خدود، على عكس فرانك فقد كان خداه نحيلين، وكان طويلا.

كان الطبيب قد دخل إلى الغرفة و ما زال ينظر إلى فرانك ينتظر دخوله هو الآخر.

« تفضل اجلس هنا »

وأشار إلى كرسي من اثنين بجوار طاولة صغيرة وكان يجلس هو على الآخر

فشعر بأن قدميه ثقيلتان وهو يمشي، ثم جلس على الكرسي وشعر وكأنه متهمًا أو مذنبًا، ولم يستطع أن يبعد عينيه عن ذلك المريض، بدا مألوفًا جدا، ولكن ما إن قطع تفكيره صوت الطبيب

«لديَّ بعض الأخبار ...»

«كيف عرفت اسمي ؟.»

« العملية التي قمنا بها قد نجحت لفترة قصيرة ولقد بدأ يعود لسابق عهده »

« ماذا تقصد ؟...»

« لقد قمنا باتباع تعليمات المستشفى التي أصدرتها سيادتك ولم نستطيع أن نفرق بين المرضى، فنحن أطباء «

«كيف جرأتم !»

« إذا ذهب خلال نفس المراحل التي حصلت مع باقي المرضى لن يكون هذا جيدًا، ولكن كان هذا الحل الوحيد ...»

« قلت لكم أن تطبقوه هنا وأن لا يخرج ليس بأن تحولوه إلى أحد أولئك الأحياء الأموات ! «

« لم يكن هناك خيار ...هكذا هي التعليمات التي وضعتها»

« كان بإمكانكم إخباري ! ... كدت أن لا أتعرف عليه ! ...»

«لم يمت !!! «

« كدت أنا أن لا أتعرف على أخي ! «

« هذا ما حدث ! .... حسنًا ....»

«لا أصدق ... وكان يجب أن أكتشف أنا بنفسي كل شيء صحيح»

« ليست هذه هي المشكلة ....لقد بدأت الأخبار تنتشر ولا أريد أن أصبح جزءًا مما يحدث هنا ....»

« ما معنى ما تقوله ؟ ..»

« معنى ما أقوله أنه قانونيًا إذا اشتركت مع الشرطة في التبليغ عنك .... فستسقط التهم من عليّ ...»

« إذا أنت هو من فعلها !...»

« لا ...لست أنا «

«من إذا ؟ بمن تريد أن تقنعني ؟ قد أكون لا آتي إلى هنا ولكنني لست مغفلا «

« لست أنا حقًا ... كانت لديَّ حالة أخوك ...لم أستطع تركه وقتها ...»

«حقا ؟!»

«أجل ... ولا يهمني إن لم تصدقني ...كل ما أريد إخبارك به أن هناك شيء غير طبيعي ...جميع الحالات التي تعرضت إلى العملية بدأت تظهر تطورات ....حتى الحالات التي خضعت لها منذ أعوام ...»

«ماذا تعني ...»

«أنا لست متأكدًا بعد ....قد تكون مجرد تهيؤات ...بالرغم أن الهلاوس علميًا لا يمكن أن يتشاركها اثنان «

«ما زلت لا أفهم ...»

« هيا ...أنت تعرف ماذا أعني ....إذا لماذا جئت إلى هنا ؟»

و نظر إليه تلك النظرة اليائسة ...كأنه عيناه اشتاق لترى من هو مثله ...بشري

«لقد جئت لأوقف هذه المهزلة ...لا أعرف أي شيء آخر «

« لا تستهزئ بي ! أنت تعرف ماذا يحدث هنا ! ...لقد علمت بكل شيء قبل مني حتى !....لقد أخبرك أخوك ...أليس كذلك ؟...لقد أخبرك ما كان يعرف حتى تدهور وضعه ولم يستطع إخبارك ما حصل لاحقا ...»

« لقد جننت أنت أيضًا !»

« و لكنني أنا سأخبرك ....سأخبرك بكل شيء !»

«لا يوجد شيء لتخبرني به «

و فجأة أمسك الطبيب بقميصه بقوة حتى كاد أن يتمزق وتحوّلت عيونه من تلك النظرة البائسة إلى كمن رأى شبحًا ويمكنك أن ترى ما رأى فيها، كل ذلك الخوف.

« لقد تمكن منهم !...و جاء دورهم الآن ....سينتقمون منا .... وأنت السبب في ما حدث» ... «لم أخبر الشرطة،لا شيء يمكنهم فعله» ....»هؤلاء المجانين ....أصبحوا أقوياء جدا ...يدمرون الأشياء .... والضعيف منهم يقتلوه» « هههه. حتى قانون الغابة طبقوه هنا «

«أنت مجنون فعلا «

« لم يعد هناك مجانين لقد سيطروا على كل شيء هم الذين أذاعوا الخبر ...هم السبب في تدمير حياتك»

«أنت كاذب !»

« و الآن سوف يأخذوها !!! «

و كان الحائـط كان مصنوعًـا مـن الورق....دخلـوا عليهـم مـن كل مـكان ...وتركـه الطبيـب ليقـع عـلى الأرض وهـو يبـكي بشـدة وأخـذ يبتعـد عنـه بسرعـه حـتى التصـق في الحائـط، وكان فرانـك يقـف في منتصـف الغرفـة أخيـه ملقـا عـلى السريـر كالميـت والطبيـب ملقـى عـلى الأرض ...ثـم دفعـه أحـد بقـوة ليجـده أحـد المـرضى يهـرع إلى الطبيـب ويـأتي خلـف واحـد آخـر لينطلقـوا كالسـيل ....حـتى اختفـى....و لـم يجـد فرانـك منـه إلا صـوت صرخاته...هـز صوتـه المـكان حـتى لـم تسـتطع الأرض حملـه فوقـع وأخـذ يزحـف إلى الخـارج حـتى وصـل إلى نهايـة الغرفـة، ثـم إلى تلـك الردهـة وقـد مـلأت بالمـرضى ينظـرون إليـه كالفريسـة لا مهـرب منهـم، لا طريـق إلى المخـرج مـرة أخـرى، يريـدون أن يجعلـه مثلهـم فلابـد أنـه مجنـون أكـثر منهـم ليكـون السـبب في مـا حصـل هنـا وحـان دوره ليعالجـوه هـو أيضًـا، ولكـن هـذه المـرة هـم الجرَّاحـين فهـم أهـل الخـبرة فلـم يجـد أمامـه إلا الجـري في تلـك الردهـة، ولـم يجـد لهـا نهايـة فعـلا وكل هـؤلاء المـرضى أصبحـوا يجـرون خلفـه الآن، وأمامـه أيضًـا هـذا مـا تمنـاه أليـس كذلـك، ولكـن الأشـياء ليسـت كمـا هـي عندمـا يراهـا أصبحـوا حولـه الآن وأخـاه في مقدمتهـم وأصبـح كل مـا في وسـعه أن يتصـارع مـع أفـكاره ويحـاول أن يستسـلم لهـم حـتى يحـدث مـا أراد، مـا جـاء هنا مـن أجلـه، ولكن هـذه الفكرة لـم يكـن مـن السـهل الاستسـلام لهـا، ولكـن أيضًـا لـم يكـن هنـاك اختيـار.

فقد انتهى كل شيء..

تمت

مريم أحمد محمد